تفسير كلّ آية بجملة

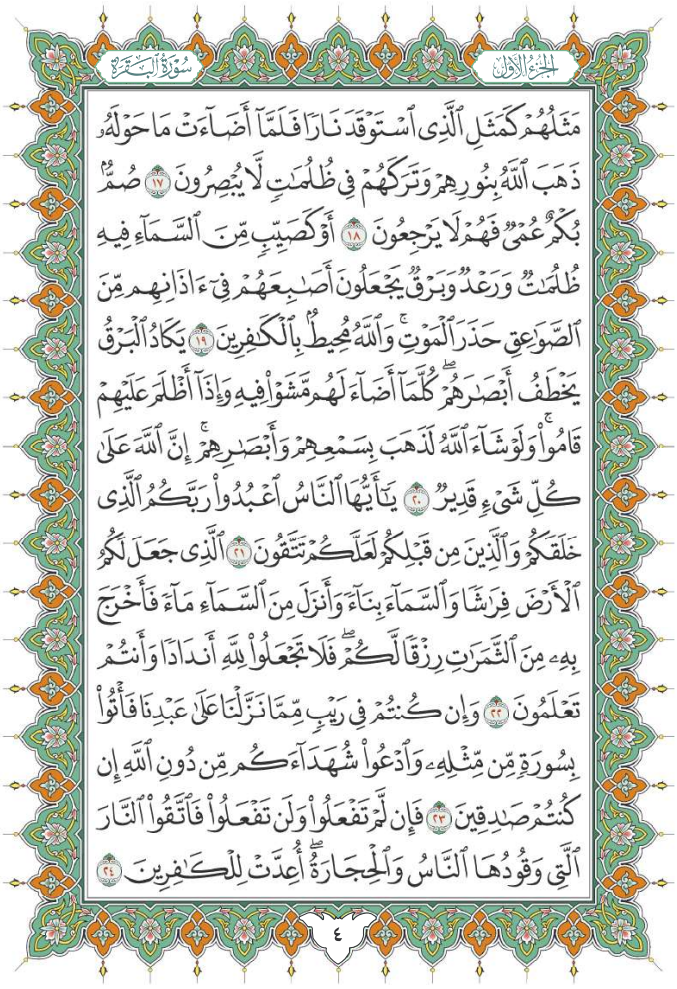

﴿١٧﴾- حال هؤلاء في نفاقهم كحال من أوقد نارًا لينتفع بها مع قومه، فلمّا أنارت ما حوله من الأشياء ذهب الله بنورهم وترك موقديها في ظلمات كثيفة- أعمالهم السّيئة- لأنّ الله قدّم إليهم أسباب الهداية فلم يتمسّكوا بها فصارت بصائرهم مطموسة، لأنّهم بإيمانهم أوّلًا اكتسبوا نورًا، ثمّ نافقوا فأبطلوا ذلك النّور، فاستحقّوا أن يبقوا في الحيرة والضّلال، فإنّه لا حيرة أعظم من حيرة الدّين.

﴿١٨﴾- هؤلاء كالصُّمّ، لأنّهم فقدوا منفعة السّمع، إذ لا يسمعون الحقّ سماع قبول واستجابة، وهم كالبُكْم؛ لأنّهم لا ينطقون بالهدى أو الحقّ، وهم كالذين فقدوا أبصارهم لأنّهم لا ينتفعون بها في اعتبار أو انزجار فهم لا يرجعون، لاستبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى، واستحبابهم الغيّ على الرّشاد. فقد حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثمّ سُلِبوه وطُبع على قلوبهم.

﴿١٩﴾- أو حالهم في حيرتهم وشدّة الأمر عليهم وعدم إدراكهم لما ينفعهم ويضرّهم، كحال قوم نزل عليهم مطر من السّماء ورعد وصواعق، يضعون أطراف أصابعهم في آذانهم كي لا يسمعوا أصوات الصّواعق خائفين من الموت، زاعمين أنّ وضع الأصابع يمنعهم منه- وفيه بيان لظلمات الكفر والوعيد عليه، وبيان الإيمان ونوره المتألّق، وبيان النّذر وألوان العذاب - وهؤلاء إذا نزل القرآن أعرضوا عنه وحاولوا الخلاص منه زاعمين أنّ إعراضهم عنه سيعفيهم من العقاب ولكنّ الله عليم بالكافرين مسيطر عليهم من كلّ جهة بعلمه وقدرته.

﴿٢٠﴾- إنّ هذا البرق الشّديد يكاد يخطف منهم أبصارهم لشدّته، وهو يضيء لهم الطّريق حينًا فيسيرون خطوات مستعينين بضوئه، فإذا انقطع البرق واشتدّ الظلام يقفون متحيّرين ضالّين، وهؤلاء المنافقون تلوح لهم الدّلائل والآيات فتبهرهم أضواؤها فيهمّون أن يهتدوا، ولكنّهم بعد قليل يعودون إلى الكفر والنّفاق. إنّ الله واسع القدرة إذا أراد شيئًا فعله، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء.

﴿٢١﴾- يا أيّها الناس، اعبدوا ربّكم الذي خلقكم من العدم وخلق الذين سبقوكم. فهو خالق كلّ شيء، لكي تعدّوا أنفسكم وتهيّئوها لتعظيم الله ومراقبته. بذلك تتطهّر نفوسكم، وتخضع للحقّ، وتخاف من سوء العاقبة.

﴿٢٢﴾- إنّه الله وحده الذي بقدرته بسط لكم الأرض، فجعلها ممهدة وسهلة للإقامة والانتفاع بها. وجعل السماء فوقكم كالبناء المحكم، مع الأجرام والكواكب. وأمدّكم بالماء الذي ينزّله من السماء ليكون سببًا لنمو النباتات والأشجار المثمرة التي رزقكم بفوائدها.

لذلك، لا يليق بكم أن تتصوّروا أنّ لله نظراء تعبدونهم مثلما تعبدونه، لأنّه ليس له مثيل أو شريك. وأنتم في

فطرتكم الأصليّة تعلمون أنّ الله واحد لا شريك له، فلا تحرّفوا هذه الفطرة.

﴿٢٣﴾- وإن كنتم في ريب من صدق هذا القرآن الذي تتابع إنزاله على عبدنا محمّد ﷺ، فحاولوا أن تأتوا بسورة مماثلة من سور هذا القرآن في بلاغتها وأحكامها وعلومها وسائر هدايتها، ونادوا الذين يشهدون لكم أنّكم أتيتم بسورة مماثلة له فاستعينوا بهم ولن تجدوهم، وهؤلاء الشّهداء هم غير الله، لأنّ الله يؤيّد عبده بكتابه، ويشهد له بأفعاله، هذا إن كنتم صادقين في ارتيابكم في هذا القرآن.

﴿٢٤﴾- فإن لم تستطيعوا الإتيان بسورة مماثلة لسور القرآن - ولن تستطيعوا ذلك بحال من الأحوال - لأنّه فوق طاقة البشر، إذ القرآن كلام الخالق، فالواجب عليكم أن تتجنّبوا الأسباب التي تؤدي بكم إلى عذاب النّار في الآخرة، التي سيكون وقودها وحطبها من الكافرين ومن الأصنام، ولقد هُيّئت هذه النّار لتعذيب الجاحدين المعاندين.

الآيات من 17 - 20
إيراد الأمثال للمنافقين

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية (١٩): أخرج الطبريّ عن ابن عبّاس وابن مسعود ﷺ وغيرهما في نزول هذه الآية قولهم:

هرب منافقان من أهل المدينة من رسول الله ﷺ إلى المشركين، فأصابهما المطر الذي ذكره الله، وكان فيه رعد شديد وصواعق وبرق. فكلّما أضاءت لهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما خوفًا من أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهما وإذا لمع البرق مشيا في ضوئه، وإذا لم يلمع لم يبصرا شيئًا، فيقفا في مكانهما دون حراك. فكانا يقولان: **"ليتنا قد أصبحنا، فنأتي محمدًا، ونضع أيدينا في يده"**. فلما أصبحا، أتيا النّبيّ ﷺ، فأسلما، ووضعا أيديهما في يده، وحسن إسلامهما. فضرب الله بهَذَيْنِ المنافِقين مثلًا لمنافقي المدينة، الذين كانوا إذا كثرت أموالهم، ورُزقوا الأولاد، وأصابوا الغنائم أو الفتوح، استقاموا على الإسلام، وقالوا: **"إنّ دين محمّد ﷺ دين صدق"**، كما كان ذانك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهما البرق. أمّا إذا هلكت أموالهم، وفقدوا أولادهم، وأصابهم البلاء، قالوا: **"هذا بسبب دين محمّد"**، فارتدوا كفّارًا، كما توقّف المنافقان في الظلام عندما أظلم عليهما البرق.

وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النّبيّ ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم، خوفًا من أن يكون قد نزل فيهم قرآنٌ يفضحهم، أو يُذكروا بشيء يؤدي إلى قتلهم، كما كان المنافقان الهاربان يجعلان أصابعهما في آذانهما أثناء الصواعق فإذا أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم توقّفوا. وهكذا، فالمنافق هو إنسان استغل الدين للوصول إلى الدُّنيا.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول الحقّ ﷻ في الآية الأولى: مثل هؤلاء المنافقين من اليهود وغيرهم ﴿كَمَثَلِ﴾ رجل في ظلمة، تائه في الطريق، استوقد نارًا ليبصر طريق القصد ﴿فَلَمَّا﴾ اشتعلت و﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ أبصر الطّريق، وظهرت له معالم التّحقيق، فوجد هذا الطّريق الموصل إلى السّلامة مخالفًا لهواه فأعرض عنه، فأطفأ الله تلك النّار وأذهب نورها، ولم يبق إلا جمرها وحرّها. كذلك اليهود كانوا في ظلمة الكفر والمعاصي ينتظرون ظهور نور النّبيّ ﷺ ويطلبونه، فلمّا قدم عليهم أشرقت أنواره بين أيديهم كفروا به، فأذهب الله عنهم نوره، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ الكفر والشكّ والنّفاق. ﴿لا يُبْصِرُونَ﴾ ولا يهتدون، ﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الحقّ، ﴿بُكْمٌ﴾ عن النّطق به ﴿عُمْيٌ﴾ عن رؤية نوره، ﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ عن غيّهم، ولا يقصرون عن ضلالتهم.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ فالصّيّب: المطر، وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضَرْبٍ آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحقّ تارةً، ويشكُّون تارةً أخرى، فقلوبهم في حال شكّهم وكفرهم وتردّدهم كأصحاب مطر غزير، ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ يلمع، وصاعقة تقمع، وهذا من التّشبيه المركّب، فيكون المطر مثالًا للقرآن- لأنّه يحيي القلوب كما يحيي المطر الأرض- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1]، وفيه ذكر الكفر والنّفاق المُشَبَّهَيْن بالظّلمات، والوعد عليه والزّجر المشبّه بالرعد، والحُجج الباهرة التي تكاد أحيانًا تبهرهم وتخوفهم- المشبّهة بالبرق- وقد يكون البرق ما يلمع في قلوب هذا الصّنف من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان، فإذا ضرب الرّعد وعظم صوته جعلوا أصابعهم في آذانهم هولًا وحذرًا من موت أنفسهم وخوفًا على نفوسهم أن تفارق عوائدها وهواها - وموت الشّهوات والأهواء وهو ما تأباه النّفس- وقد ماتت أرواحهم وقلوبهم من سماع الحقّ فيهتدوا ويميلوا إلى الإيمان ويُفْضَحُ نفاقهم. والصّواعق هي تكاليفُ الشّرع التي يكرهونها، الإنذار الموجود في القرآن الكريم. وقيل: هذا مثل المنافق يبصر أحيانًا ويعرف أحيانًا ثمّ يدركه عمى القلب. فكلّما ظهر له من الإيمان شيء استأنس به واتّبعه، وتارة تعرض له الشّكوك، فتُظلم قلبه، فيقف حائرًا، لِمَا ترك من الحقّ بعد معرفته. فالله بكلّ ما نزل بعباده من نقمة أو عفو قدير.

وقد قسّم الله المؤمنين في أوّل سورة "الواقعة" وآخرها، وفي سورة "الإنسان" إلى قسمين: "السابقون" وهم المقرّبون، و"أصحاب اليمين" وهم الأبرار، فالمؤمنون صنفان: مقرّبون، وأبرار.

وتلخّص من مجموع هذه الآيات الكريمات: أنّ الكافرين صنفان أيضًا: دعاةٌ ومقلّدون، وأنّ المنافقين أيضًا صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النّبيّ ﷺ قال:

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

﴿ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ﴾[1] استدلّوا بهذا الحديث على أنّ الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان، وشعبة من نفاق، إمّا عمليّ يظهره هذا الحديث، وإمّا اعتقاديّ كما دلّت عليه الآية.

قال ابن جرير: إنّما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كلّ شيء في هذا الموضع، لأنّه حذّر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنّه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير. فكلّما عزمْتَ أيُّها العبد على أمر، مهما كانت صعوبته فلا تتوهّم، وتذكّر أنّه ما قادك شيء مثل الوهم، فالشيطان يُهوّن عليك القيام بكلّ نافلة، ويثقّل عليك كلّ ما هو واجب وقضاء، فاستعن بقدرة الله القادر على كلّ شيء وبـ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ على قضاء صلوات فائتة، وعمرة، وحجّ، وقراءة ورد، فإذا أخطأ العبد استغفر وتاب من ذنبه وجدّد عهده مع الله، لذا علينا أن نطبّق الدّين ونَلِجَ فيه بِرِفْقٍ ممتثلين قول النّبيّ ﷺ: ((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ))[2].

فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رضي الله عنه عَلَى اليَمَنِ، قَالَ: ﴿ إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾[3].

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدايات الآيات:

١. خيبة سعي أهل الباطل وسوء عاقبة أمرهم.

٢. القرآن يُحيي القلوب كما يُحيي المطر الأرض.

٣. حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة.

٤. في ترك هوى النّفس حياة الإنسان، وفي اتّباعها موت قلبه. أصحاب الأهواء يرون النهي والأمر الإلهي الذي فيه حياة القلوب كالصواعق التي تأتي لتقتلهم أو تقتُلَ أهواءهم، مع أن الله تعالى جاء بهذا الدين بيُسر ولطف ورفق، وبنهاية الطريق سيؤدي إلى ترك الأهواء، فإذا عصيت ربّك استَغْفِرْ وانْدَمْ، وأهمُّ شيء صَحِّحْ عَقيدتَك. واذا عصيت فهذا ليس نهاية الطريق , فالله تعالى فتح باب التوبة .

٥. العقيدة والإيمان أساس هذا الدّين. فلا يقبلُ عمل ولا عبادةٌ إلّا بعد إيمان صحيح وجازم بأركان الإيمان الستّة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه.

٦. على المسلم دراسة العقيدة الصحيحة والحرص على صحّتها وسلامتها والتّأكّد أنّها عقيدة النّبيّ ﷺ والصّحابة الكرام

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٣٩، كتاب: الإيمان، باب: الدين يسر.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، عن ابن عبّاس، كتاب: الزكاة، باب: لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، حديث رقم: ١٤٥٨.

والسّلف الصالح وما أجمع عليه أئمّة المسلمين.

٧. -على المسلم أن يحذر كلّ الحذر من اتّباع بعض الدُّعاة الجدد، الَّذين ظهروا على مواقع التّواصل الاجتماعيّ، أو على شاشات التّلفاز يروّجون لمعتقدات توافق أهواءهم، أو تتّبع إملاءات خارجيّة تخالف ما اتّفق عليه أئمّة المسلمين من السّلف الصّالح إلى يومنا هذا، سواء بالإيمان بالغيب أو الإيمان بالقدر -كبدعة قانون الجذب (Low of attraction) وكلّ ما يمثّل طريق الشيطان أو حبّ الدُّنيا، يبيعون دينهم من أجل الدُّنيا ويسعون لتفريق المجتمع وإشعال الفتن وسفك الدِّماء أو تحليل الحرام من خمر وقمار وربا، فالأرزاق مقسومةٌ ولكنّ هؤلاء افتتنوا بالدُّنيا، وإنّ اتباع هؤلاء يمثل شرارة تحرق أمن المجتمع لذلك وجب الحذَرُ منهم حفاظًا على البلاد والعباد ووجب على المسلم التثبت والتحقق من المصادر الصّحيحة والرُّجوع إلى العلماء الرّبانيين، لئلّا يقع في الضّلال.

٨. المنافقون عطّلوا بحقّ وسائل المعرفة الصّحيحة والإيمان الراسخ، فهم صمّ عن استماع الحقّ، بُكْمٌ عن التّكلّم به، عُمي عن الإبصار له، وأشدّ من ذلك أنّهم لا يرجعون في النّهاية إلى الحقّ لسابق علم الله تعالى فيهم، لا بقهر وإجبار، وانّما بعلم الله تعالى الذي هو صفةُ كشفٍ وإحاطةٍ لا إجبار فيها ولا تأثير، وهم يعاملون في الدّنيا معاملة المؤمنين حَسْبَ الظّاهر، ويعاملون في الآخرة معاملة الكافرين.

هكذا يكون المنافقون يوم القيامة، عندما يعطى النّاس النّور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النّور ما يضيء له مسيرة فراسخ، أو أقلّ أو أكثر، ومنهم من يُطْفَأُ نوره تارةً ويضيء أخرى، ومنهم من يمشي على الصّراط تارة ويقف أخرى؛ ومنهم من يُطْفَأ نوره بالكليّة، وهم الخلّص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴿١٧﴾صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾[1]،

وقال في حقّ المؤمنين الذين أنار الله قلوبهم: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[2] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

النّاس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١. **المؤمنون الخُلَّص:** هؤلاء هم الذين وصفهم الله في الآيات الأربع الأولى من سورة "البقرة" بأنّهم المتّقون، وهم أعلى مرتبة من الموقنين.

٢. **الكفّار الخُلَّص:** وهم الذين وصفهم الله في الآيتين السّادسة والسّابعة بأنّهم لا يؤمنون مختومة قلوبهم ولهم عذابٌ عظيم.

٣. **المنافقون:** وهم على قسمين:

- المنافقون الخُلَّص، الذين ضُرِبَ لهم مثل الذي اسْتَوْقَدَ النّار.
- المنافقون المتردّدون، الذين يظهر لهم أحيانًا نور الإيمان، وأحيانًا يخبو عنهم، وضُرِبَ لهم مثلُ الصَّيِّبِ في الظلام، يستضيئون بنور البرق لحظة فيتقدّمون ثمّ يقفون، وهؤلاء أفضل حالًا من المنافقين الخُلَّص.

هذا التشبيه يذكّرنا بما أورده الله تعالى في سورة النّور عن المؤمن والذي جعل في قلبه من الهدى والنّور، الذي شُبِّه

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣. (٢) سورة الحديد، الآية: ١٢. (٣) سورة التحريم، الآية: ٨.

بنور المصباح في الزجاجة الصافية التي كأنّها كوكب دريّ، فقلب المؤمن مفطور على الإيمان، يستمدّ نوره من الشريعة النقيّة الخالصة، التي تصله الحقيقةُ واضحة من دون تشويش أو خلط.

أما الكفّار الذين يعتقدون أنّهم على هدى، فهم في الحقيقة ليسوا على شيء، وضُرِبَ لهم مثل الجهل المركّب في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[1].

ثمّ ضرب الله مثلاً للكفّار الذين يعيشون في الجهل البسيط، وهم الذين قال عنهم في الآية: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[2].

لِهذا قُسِّم الكفّار إلى قسمين:

١. **الدعاة إلى الضلال:** وهم الذين عرفوا الحقّ وأعرضوا عنه، وقد وصفهم الله بـ "المغضوب عليهم". فالدعاة الجدد الذين يدعون إلى الضلال، ويحرّفون الكلام عن مواضعه، ينتمون إلى المنافقين المغضوب عليهم.

٢. **المقلّدون:** وهم الجاهلون البسطاء الذين يتّبعون هؤلاء الجاهلون جهلًا مركّبًا المغضوب عليهم، ولكلّ منهم ضِعف من العذاب.

من أسماء الله الحسنى: القادر (القدير)

شرح اسم الله القادر: من له عموم القدرة، وهي صفة يتأتّى بها إيجاد الممكن وإعدامه على وفق الإرادة.

هو المتمكّن من الفعل بلا معالجة ولا واسطة، الذي لا يلحقه عجز فيما يريد إنقاذه.

التّعلّق باسم الله القادر: أن تستحضر دائمًا معاني لا حول ولا قوّة إلا بالله عند إرادة القيام بأيّ فعل في كلّ وقت وحين، بالاستمداد من قدرته تعالى وقوّته، مدركًا أنّ الحول والقوّة لا وجود لها إلّا بالله، حتّى تكون تصرفاتك به وله في كلّ شيء.

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[3]

- احذر كلّ الحذر من أن ترى الحقّ ثمّ تعرض عنه امتثالًا لهواك. فإنّ نور القلب الذي يعينك على التمييز بين الحقّ والباطل بيد الله سبحانه، فادعُ الله قائلًا: "اللَّهُمَّ اجعل في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا.
- احذر كلّ الحذر من أن تكون من الذين يعبدون الله على حرف.

في الأخلاق والآداب

التّخلّق بأسماء الله تعالى (القادر - القدير): أن تدخل في كلّ أمر حسن مستعينًا بالله تعالى بأسرار "إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ

(١) سورة النور، الآية: ٣٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٤٠.
(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن ابن عبّاس، كتاب: الدعوات، باب: الدعاء إذا انتبه بالليل، حديث رقم: ٦٣١٦.

نستعين" وأن لا تعجز عن شيء من مرادك فيه، فتقول: هذا صعب عليّ، بل استعن بالقادر واعمل على قدر جهد استطاعتك، وابذل في طاعته غاية قدرتك.

الحكمة: من لم يُقبل على الله بملاطفات الإحسان سيق إليه بسلاسل الامتحان.

الحكمة: العلم إن قارَنَتْهُ الخَشية فلكَ، وإلَّا فعَلَيك.

في السّيرة والشّمائل

تأثُّر عتبة بن ربيعة بالقرآن:

عن جابر بن عبد الله ﷺ، أنّه قال: اجتمعتْ قريش يومًا فقالوا: انظروا أعلَمَكُم بالسِّحر والكهانة والشِّعر، فليأتِ هذا الرَّجل الذي فرَّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلِّمْه ولينظرْ ماذا يردُّ عليه. فجاءه عُتبة بن ربيعة وكلَّمه كلامًا طويلًا، حتَّى إذا فرغ عتبة، قال له النّبيّ ﷺ: ﴿فَرَغْتَ يا أبا الوليد؟﴾ قال: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حم* تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ* وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[1]، حتَّى بلغ قولَه تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[2].

فأمسكَ عُتبةُ على فيه -يعني فَمَ النَّبيّ ﷺ-، وناشده الرَّحم أن يكفَّ عنه، ثمّ قام عُتبة إلى أصحابه. فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

وكان فيما قال لهم عُتبة بن ربيعة: يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، خَلُّوا بين هذا الرَّجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعتُ نبأ - قالوا: سَحَرَكَ واللهِ يا أبا الوليد بلسانه.

هكذا كان أثر سماع القرآن في أعدائه، يُعتبر مفاجأة مذهلة، لم تعتدها آذانُهم ولا عقولُهم، ولم يعهدوا في ثقافتهم مثل هذا الخطاب الذي فاق - في بلاغته وتأثيره - كلَّ ما سمعته آذانهم من قبل - شعرًا كان أو نثرًا.

ومن تأثير القرآن العظيم في أعدائه وخصومه: تأثُّر زعماء المشركين بالقرآن:

كان زعماء المشركين مع عنادهم يُسارق بعضُهم بعضًا، فربَّما خرج أحدُهم في جُنْح اللَّيل المظلم ما يُخرجه إلَّا استيلاء القرآن على مشاعره، يبحث عَمَّن يتلو القرآن في هدأة اللَّيل، وقد أرخى سدوله؛ فهذا أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة، ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلِّي من اللَّيل في بيته، فأخذ كلُّ رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتَّى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطَّريق فتلاوموا، وقال بعضُهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا ثمّ انصرفوا، وحصل في اللَّيلة الثَّانية ما حصل في الأُولى. وحين التقوا في اللَّيلة الثَّالثة، قال بعضُهم لبعض: لا نبرح حتَّى نتعاهدَ ألَّا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثمّ تفرَّقوا.

هكذا كان تأثير القرآن في الأعداء، يخلع منهم القلوب، فيطير النَّوم من عيونهم، ويبحثون عن سكن لها حتَّى إذا ما وجدوه وكادوا أن يستكينوا له أخذتهم العزَّة بالإثم، فارتدُّوا على أدبارهم ما يمنعهم إلَّا العناد.

(١) سورة فصّلت، الآيات: ١-٥.
(٢) سورة فصّلت، الآية: ١٣.

ولهذا حين سأل الأخنس أبا جهل عن رأيه فيما سمعه من النّبيّ ﷺ قال: ماذا سمعت؟ فقال أبو جهل: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشَّرفَ، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتَّى إذا تجاذبنا على الرُّكب وكنَّا كفرسَي رهان، قالوا: منَّا نبيٌّ يأتيه الوَحْي من السَّماء، فمتى نُدرك مثل هذه؟ واللهِ لا نؤمن أبدًا ولا نصدِّقه، هكذا العناد والحسد يُوصل صاحبه إلى نار جهنّم وبئس المصير، مع أنّه سمع الحقّ وعرف أنّه من الله - الحسد والعناد ردّه عن الحقّ - .

ومن تأثير القرآن العزيز في خصومه: تأثُّر الطُّفيل بن عَمْرٍو بالقرآن:

ذكرت كتب السِّيرة قصَّةَ رجل من اليمن من قبيلة دَوس قَدِم مكَّة في العام الحادي عشر من النّبوّة، ألا وهو الطُّفيل بن عمرو الدَّوسي رضي الله عنه، فاستقبله أهل مكَّة قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجلَّ تحيَّة وأكرم تقدير، وقالوا له: "إنَّك قَدِمْتَ بلادنا، وإنَّ هذا الرَّجلَ - وهو الذي بين أظهرنا - فرَّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وإنّما قوله كالسِّحر يُفَرِّقُ بين المرءِ وابنه، وبينَ المرء وأخيه، وبين المرءِ وزوجه، وإنّا نخشى عليكَ وعلى قومك ما قد حلَّ علينا، فلا تُكَلِّمْه، ولا تَسْمَعْ منه، قال: فواللهِ ما زالوا بي حتَّى أجمعتُ ألَّا أسمعَ منه شيئًا، ولا أُكَلِّمَه حتَّى حشوتُ في أذنيَّ - حين غدوتُ إلى المسجد - كُرْسُفًا؛ فَرَقًا من أن يَبْلُغَني شيءٌ من قوله. قال: فغدوتُ إلى المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ قائمٌ يُصلّي عند الكعبة، فقمتُ قريبًا منه، فأبى الله إلَّا أن يُسمِعَني بعضَ قوله، فسمعتُ كلامًا حَسَنًا، فقلتُ في نفسي: واثْكَلَ أُمَّياه، واللهِ إنّي لرجل لبيب شاعر، ما يَخفى عليَّ الحَسَنُ من القبيح، فما يمنعُني أن أسمع من هذا الرَّجل ما يقول؟ فإن كان ما يقولُ حَسَنًا، قبلتُ، وإن كان قبيحًا، تركتُ. قال: فمكثتُ حتَّى انصرف رسولُ الله ﷺ إلى بيته، فتبعتُه حتى إذا دخل بيتَه دخلتُ عليه، فقلتُ: يا محمّد! إنَّ قومَك قد قالُوا لي: كذا وكذا، فواللهِ ما بَرِحُوا يُخوِّفوني أمرَك حتَّى سددتُ أذنيَّ بِكُرْسُفٍ لئلّا أسمعَ قولَك، ثمّ أبى الله إلَّا أن يُسمِعَنيه، فسمعتُ قولًا حَسَنًا، فاعرضْ عليَّ أمرك، فعرضَ عليَّ رسولُ الله ﷺ الإسلامَ، وتلا عليَّ القرآن، فلا واللهِ ما سمعتُ قولًا قطُّ أحسنَ منه، ولا أمرًا أعدلَ منه، فأسْلَمْتُ، وشهدتُ شهادةَ الحقِّ.

في السّلوك

الإشارة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

والإشارة في هذه الآية لمن له بداية جميلة؛ يسلك طريق الإرادة، ويتعنَّى مدَّة، ويقاسي بعد الشدّة شدّة، ثمّ يرجع إلى الدّنيا قبل الوصول إلى الحقيقة، ويعود إلى ما كان فيه من ظلمات البشريّة. أورق عُودُه ثمّ لم يثمر، وأزهر غصنه ثمّ لم يدركه، وعجَّل كسوفُ الفترة على أقمار حضوره، وردَّتْهُ يدُ القهر بعد ما أحضره لسان اللّطف، فوطّن عن القرب قلبه، وغلّ من الطّالبين نفسه. فالمنافقون ظهر عليهم شيء من العوافي في الدّنيا بظاهره ثمّ امْتُحِنُوا في الآخرة بأليم العقوبة، فبقوا في ظلمة إنكارهم[1].

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ كذلك أصحاب الغفلات إذا حضروا مشاهد الوعظ، أو جنحت قلوبهم إلى الرِّقّة، أو داخَلَهم شيء يُقرّبُ أحوالهم من التّوبة، ويُقوّي رغبتهم في الإنابة، حتّى إذا رجعوا إلى تفكيرهم - فأرادوا الحجّ والعمرة أو التبرّع في بناء مسجد أو مركز لتعلُّم القرآن مثلًا - ثمّ شاوروا مَن حولهم، فأشار الأهل والولد عليهم بالعَوْدِ إلى دنياهم، وهَدَّدُوهم

(١) لطائف الإشارات للقشيري ص٦٥- ٦٦.

بالضّعف والعجز، فتضعف همّتهم، وتسقط إرادتهم، فيعدلون عن الحجّ، أو الحجاب، أو أيّ شيء يقرّبهم من طاعة الله- لذا الحذر الحذر، فالزّمن زمن فتن تفتننا عن ديننا، فلنتسلّح بالصّلاة على النّبيّ ﷺ، كما حدّثنا سيّدنا رسول الله ﷺ: «أمسك ستًّا قبل السّاعة أوّلها وفاة نبيّكم ﷺ.. والثالثة فتنة تدخل كلّ بيت شعر ومدر...» [1].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ يعني سمع المنافقين الظّاهر وأبصارهم الظّاهرة، كما أصمّهم وأعماهم بالسّرّ، فكذلك أرباب الغفلة والقانعون من تطبيق الإسلام بتطبيق الأحكام الظاهرة مع إهمال مسألة صفاء العقيدة وصلاح القلب، فالله تعالى قادر على سلبهم التّوفيق فيما يستعملونه من ظاهر الطّاعات، كما سلبهم التّحقيق فيما يستبطونه من صفاء الحالات.

في الإعجاز العلميّ

التفريق بين الضوء والنور

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

هذه الآية تأتي في مقام إيراد الحكمة، ولكنّها دقيقة من الناحية العلميّة.

القرآن الكريم يفرّق دائمًا بين الضياء والنور: الضياء عبارة عن موجات كهرومغناطيسيّة تنطلق من عمليّة احتراق الوقود أو الخشب أو النفط أو التفاعل النوويّ في داخل النجوم كالشمس الذي ينتج موجاتٍ هائلةً من الكهرومغناطيسيّة لا يرى أغلبها، ومن ضمنها حزمة صغيرة للغاية تعرف باسم الضوء المرئيّ. فالضوء المرئيّ حينما يسقط على الأشياء المعتمة ينعكس نورًا، تختلط هذه الأشياء مع بعضها البعض فيعطينا ربّنا تبارك وتعالى هذا النور الأبيض الذي يمنّ علينا به في وضح النّهار.

وهنا لنا وقفة، فهذا الكتاب الذي أنزل على النّبيّ الأميّ ﷺ في أمّة كانت أغلبيّتها السّاحقة من الأميّين، يفرّق بين الضياء والنّور، وهما أمران لم يستطع الإنسان أن يصل إلى فهمهما إلا بعد بحث طويل من عدّة علماء لمئات السنين حتّى تعرّفنا على الفرق بين الضّياء والنّور، إذ يقول ربّنا تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[2]. هذا التفريق يحصل باستمرار في القرآن الكريم يفرق بين الضّياء والنّور، وهذه قضيّة دقيقة بالغة من الناحية العلميّة قبل أن يدركها كثير من النّاس حتّى في زماننا زمن العلم الذي نعيشه.

أيضًا يفرّق ربّنا تبارك وتعالى بين إيراد الظلمات بالجمع، والنور بالإفراد، لأنّ الأصل في الكون وهو الظلام، ففي ظلمة الكون إذا جاء اللّيل عمّت الظلمة الأرض، والتقت ظلمة الأرض بظلمة الكون فكانت الظلمات.

وهذه ومضة علميّة رائعة تشهد للكتاب الكريم بأنّه لا يمكن أن يكون صناعة بشريّة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾، حيث يشبّه الذي أغلق قلبه عن معرفة الهداية الربانيّة وصمّ آذانه عن الاستماع إلى الحقّ أنّه لا يمكن له أن يهتدي، وما أكثر هؤلاء في زمن الفتن الذي نعيشه.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ ابن القيم الجوزيّة رحمه الله قال بالنصّ في هذه الآية: "شبّه الله حال المنافقين

(١) رواه نعيم بن حمّاد في الفتن، عن عوف بن مالك الأشجعي، باب: أمسك ستًّا قبل الساعة، حديث رقم: ١٠٣.
(٢) سورة يونس، الآية: ٥.

بقوم أُوقِدَت لهم نارٌ لتضيء لهم، وينتفعوا بها فلمّا أضاءت لهم فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم وما يضرّهم، أطفئت عنهم تلك الأنوار، وبقوا في ظلمات لا يبصرون".

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾، أي: جعل ضوءها خارجًا عنه منفصلاً، ولو اتّصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنّ ضوءه كان مجاورة لا ملابسة ومخالطة.

وقوله: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بنارهم، ليطابق أوّل الآية، فإنّ النّار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق (النّور) وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق (النّارية)، وقال ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بضوئهم، لأنّ الضوء هو زيادة في النّور، فلو قال: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلمّا كان النّور أصل الضّوء كان الذّهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته. وهذا أبلغ في نفي الإبصار عنهم، وأنّهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم. وهذا ينبّه إلى أنّ العين تُبصر بالنّور الذي يأتي من خارجها وليس صادرًا عنها كما كان يظنّ السّابقون وخصوصًا فلاسفة اليونان.

أخطار الصواعق والبرق:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

إنّه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه فزع وضلال، وفيه أضواء وأصداء. نفهم من الآية وجود سحاب في السماء يحوي في داخله الظلمات والبرق والرعد، ولكن ماذا يقول العلم؟

وجد العلماء أنّ الغلاف الجويّ يحوي غيومًا ركاميّة عالية يبلغ ارتفاعها أكثر من عشرةِ كيلومترات، وهذه الغيوم يكون مركزها مظلمًا ولو كنا في وضح النهار!! وأنّ هناك ومضات برق تحدث داخل هذه الغيوم (في مناطق اختلاف الشحنات الكهربائية)، وهذا البرق الذي لا نراه على الأرض يولّد الرعد أيضًا، ولذلك وصف القرآن بدقّة مذهلة ما يحدث داخل الغيمة: ظلمات وبرق ورعد، والعلماء لم يكتشفوا ذلك إلا في القرن العشرين.

صيّب الماء النازلُ من السّماء هاطل غزير ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون وهم فزعون ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ إنّها الحركة التي تغمر المشهد كلّه: من الصيّب الهاطل، إلى الظّلمات والرّعد والبرق، إلى الحائرين الفزعين فيه إلى الخطوات الوجلة، التي تقف عندما يخيّمُ الظّلام.

إن هذه الحركة في المشهد لتَرْسُمُ -عن طريق التّأثر الإيحائيّ- حركةَ التّيه والاضطراب والقلق التي يعيش فيها أولئك المنافقون، وفي هذه الآيات حقيقة علميّة متعلّقة بأخطار الصواعق، فقد أثبت العلم الحديث أنّ الصّواعق تحدث نتيجة التفريغ الكهربائيّ، ويتمّ هذا التفريغ عادة خلال الأجسام المرتفعة أو القابلة للتوصيل الكهربائيّ، ولهذا السبب يتعرّض الشجر وخاصّة البلوط للصواعق، كما تتعرّض لها السفن في البحار والمحيطات، وإذا أصيب شخص بمسّ

بسيط من صاعقة وجبت المبادرة إلى إجراء التنفّس الصناعي له لوقت طويل، وربّما تعود إليه الحياة وغالبًا ما يفقد حياته، ولا عجب فقد أهلك الله عادًا وثمود بالصاعقة، فقال: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1].

ويسبّب الرعد سخينًا شديدًا فجائيًا في مناطق الهواء التي ينبعث منها، وكذلك تفعل الصاعقة بطبيعة الحال، فتتمدّد هذه المناطق فجأة وتولّد سلسلة من أمواج التضاغط والتخلخل في الجوّ، و"هو الرعد"، ويعزو العلماء جلجلة الرعد المعروفة إلى ما يعتري سلسلة الأمواج الصوتيّة هذه من عدّة انعكاسات من قواعد السحب ومن المرتفعات ونحوها.

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

اللّهُمَّ أرنا الحقّ حقًا وارزقنا اتّباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

الآيات من 21 - 22

الأمر بعبادة الله وحده والأسباب الموجبة لها

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

بعد أن ذكر الله تعالى أصناف النّاس الثلاثة - المؤمنين المتّقين، الموقنين، والكافرين، والمنافقين -جاء الأمر الإلهي لجميع النّاس، ومن بينهم مشركو مكّة، بعبادته وحده، والخضوع له بالطاعة، وإفراده بالربوبيّة والوحدانيّة، وترك عبادة الأوثان والأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها،

وذلك لأنّ الأدلّة القاطعة والبراهين الواضحة قد ظهرت على أنّه لا إله إلا الله، وأنّه سبحانه هو خالقهم، وخالق آبائهم وأجدادهم، وخالق كلّ شيء، وهو المنعم المتفضّل على جميع الخلائق، بما أنزل من خيرات الأرض والسماء.

المعنى العام

أي يا عبادي اعبدوني بقلوبكم بالتّوحيد والإيمان، وبجوارحكم بالطّاعة والإذعان، وبأرواحكم بالشّهود والعيان، فأنا الذي أظهرتكم من العدم - أنتم ومَن كان قبلكم - وأسبلت عليكم سوابغ النّعم، الأرض تقلكم، والسّماء تظلّكم، والجهات

(١) سورة فصلت، الآية: ١٣.